غاندى البطل الروحى

على سهل أخضر بالقرب من دلهى عقد اجتماع رائع فى أول كانون الثانى عام ١٨٧٧ . وجلس فى هذا الاجتماع كبار الضباط وكبار حكام الهند وراء منصة مكسوة بألوان خضراء وحمراء وبيضاء وذهبية ليسمعوا لأول مرة تنصيب الملكة فكتوريا أول إمبراطورة على الهند . وعند ما صدحت الأبواق معلنه وصول صاحب السعادة نائب الملك ادورد روبرت بولت لايتن البارون الثانى لقاطعة لايتن وقفوا جميعا يحيون سعادته وهو يمشى على سجادة حمراء طولها ٨٠٠ قدم . ثم قرئت الارادة الملكية باعلان الملكة امبراطورة على الهند ، ورفع العلم ، وأطلقت المدافع تحية لهذا الحادث ١٠١ اطلاقة . وبعد ذلك عزفت الفرق الموسيقية نشيد « اللهم احفظ الملكة » ، وسار الجنود على دق الطبول ونفخ المزامير تتقدمهم مواكب من الفيلة مجللة بغلائل ذات ألوان زاهية بهية رافعة خراطيمها إلى الأعلى مجيبة على فرقعة البارود .

وكان سمو المهراجا سنديا أول من هنأ الامبراطورة غيابيا هاتفا « شاهنشاه بدى شاه » (ملكة الملكات ليباركك الرب) . وقال إن أمراء الهند يصلون لدوام سيادتك وقوتك إلى الأبد .

عمره ونعيم

إن كلمة « إلى الأبد » التى نطق بها المهراجا سنديا كان يمكن أن تعمر أكثر فى الهند لو لم يوجد طالب خجول كان يعيش حينئذ فى بلدة نوربندار الواقعة فى شمال الهند الغربى على بعد ٧٠٠ ميل من بحر العرب . وكان عمر هذا الطالب الذى يسمى موهنداس كرشند غاندى ثمانى سنوات عندما نصبت الملكة فكتوريا إمبراطورة على الهند . وقد امتاز غاندى منذ هذه السن

باشمئزازه من تصرفات الحكام البريطانيين ، وكان يبدو عليه التأثر وهو يسمع أساتذة المدرسة ينشدون أبياتا من الشعر الركيك فى تمجيد الفرد الانكليزى و تحقير الهندى المستعبد . وكان من هذه الأبيات :

أنظر إلى الرجل الانكليزى القدير
يحكم الهندى الصغير
لأنه آكل اللحوم
وطوله خمسة أقدام .

ومع أن والديه كانا متدينين جدا من ملة ميشنافاس التى تحرم أكل اللحوم تحريما قاطعا ، فقد تقصّد غاندى بعد بضع سنين على أكل لحم المعز ليقتدى بالانكليز . وقد وصف بعد ذلك ما تركه هذا العمل فى نفسه فقال : « قضيت ليلة رديئة جدا . وكلما حاولت النوم خيل إلىّ أن فى داخلى معزة تمأمىء ، فكنت أقفز من السرير والندم ولوم الضمير يحزان فى نفسى . »

ولم يزد وزن جسم غاندى الهزيل على ١١٠ بادنات ، ولكن الروح التى كانت فى داخل هذا الجسم أشعلت نار أعظم حركة تحريرية فى الهند وقوضت عروش القديرين وآكلى اللحوم . وقد أطلق المستر ونستن تشرشل يوما على غاندى اسم « فقير متمرد نصف عريان » ، وقال إن هؤلاء الهنود لن يحصلوا على مركز الدومنيون طوال حياتهم . ولكن بعد سبعين سنة من حفلة دوربار العظمى كان غاندى وتشرشل لا يزالان على قيد الحياة وكانت الحرية على قاب قوسين أو أدنى من الهنود .

ولكن البشر لم يظهر على غاندى إلا عندما غادر البريطانيون نهائيا مستعمرة المنبوذين القذرة فى ضواحى دلهى الجديدة ؛ لأنه عند ذاك فقط استمتع بثمرة جهاد دام أكثر من نصف قرن .

وقد حاول غاندى دائما أن يشيع السلام بين الطوائف الهندية ، لأنه كان يعتبر العنف والشقاق فى الهند إهانة شخصية له . وكانت « الاهمأ » أى عدم العنف المبدأ الأول فى حياته ، وظل يؤمن بأن الستيافراها (قوة الروح) هى الطريقة الوحيدة المرغوبة فى الحياة . وفى مسكنه المطلى بالجير الأبيض راح غاندى يلعق جراحات روحه و يردد : « إنى أشعر بأن عنف الهنود ليس

إلا علامة ذات دلالة » . وكان يناجى الأوراد ويقول : « إننا حالما نلقى بالنير الأجنبى إلى الخارج فان كل الأوساخ والقاذورات ستطفو على السطح . وعند ما يفيض الكنج فان الماء سيتعكر . »

ولكن من سخرية القدر أن يساعد غاندى الذى قضى حياته يجرب أن يوجه الحياة فى قنوات منظمة على إثارة الشعب ودفعه لأحداث الشغب . فان الذين سماهم « الملايين الجائعة المكدودة الخرساء من أولئك الذين يجلونه (ويعبدونه فى بعض الأحيان) » لم يفهموه عند ما كان يصرخ ويبكى من أجل حريتهم طالبا منهم ألا يلجأوا إلى القوة لنيل الحرية . ولكنه لم ييأس بل كان يزداد حماسة على حماسة ويقول « إن تثبيت نظام صحيح متسامح بين ٤٠٠ مليون فرد ليس مزاحا » .

وقد ابتدأ اهتمام غاندى بتنظيم حياته عندما قصد إلى جنوب أفريقيا محامياً له الحق فى الترافع أمام المحاكم الانكليزية ، وكان عمره إذ ذاك ٣٢ عاما . وهناك أحس لأول مرة بعبء الرجل الابيض ، فأخذ يهمل تدريجيا عمله المربح فى المسائل القانونية ، وراح يوجه مواطنيه الهنود لمكافحة القانون المحلى المشرع ضد الهنود .

وقد أعاره هناك صديق انكليزى كتاب الكونت ليو تولستوى « الله معك » . فأثرت الحكمة المسيحية الروسية السمحة فى عقل المحامى الهندى تأثيرا كبيرا ، ودفعته إلى انتهاج حياة جديدة . وقد وجد أن العمل اليدوى ضرورى للحصول على سعادة حقيقية ، واعتقد أن الهنود سيجدون السلام عند ما يصنعون ملابسهم بوساطة « الجاركا » أى عجلات الغزل . فوضع تشريعا عمليا مخصصا للهنود سنويا ٥٠٠ بادن كانت تصرف لتحقيق الاستقرار الزراعى ، وبعد ذلك أخذ يصدر جريدته « الرأى العام الهندى » .

وحشد غاندى كل القوى الهندية المحلية لاعلان أول عصيان مدنى ، فاضطرت حكومة جنوب أفريقيا العنيدة إلى إلغاء بعض القوانين الموضوعة ضد الهنود . وفى عام ١٩١٥ ، وكان عمره ٤٥ سنة ، عاد إلى بومباى زعيما للهند .

تجربة كبرى

وبعد سنة واحدة من رجوعه قام برحلة جاب فيها جميع أرجاء الهند ، فكان الناسك الرقيق يسير ملتحفا بمئزره بين القرويين الذين امتلأت قلوبهم بمحبته ، وصارت أقواله مرادفة للصدف عندهم . وعند ما كان يشاهده الفلاحون الساذجون كانوا يلتفون حوله ، بل إن بعضهم كان يحاول تقبيل قدميه إلا أن غاندى كان يصرخ فيهم : « تمسكوا بالله واعبدوه . »

وقد عرف بالمهاتما (الروح الأكبر) ، كما صار يسمى ، بأنه قد أصبح زعيما دينيا لا سياسيا . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إذا ما ظهر أنى أشارك فى السياسة فما ذلك إلا لأن المسائل تلتف كما تلتف الحية على نفسها ، بحيث لا يمكن الانسان أن يستخلص من بينها مسألة واحدة مهما جرب من محاولات . وإننى أريد أن أصارع هذه الحية ... إننى أريد أن أدخل الدين فى السياسة . »

ووجد غاندى أنه لا يمكن أن يكون للشعب الهندى تفكير صاف فى كلمته وعهده ما لم تكن له قضاياه الخاصة به . ولذلك أخذ يعمل من أجل استقلال الهند . ووجد أنه من الحكمة أن تسلم قيادة الكفاح فى سبيل الاستقلال إلى طائفة من الهنود المثقفين تثقيفا جيدا . وصار المجلس الوطنى جمعية أدبية تجرى فيها المناقشات التى تدور حول حصول الهند على مركز الدومنيون بالوسائل التشريعية . وعمل غاندى على تحويل المجلس إلى منظمة شعبية كبيرة . وعند ما نجح فى ذلك جند الفلاحون جميعا أنفسهم للكفاح وراء غاندى الذى دعاهم فلبوا النداء .

وإن الوسائل البريطانية العنيفة الرادعة بعد الحرب العالمية الأولى أقنعت غاندى بأنه ليست لبريطانيا رغبة فى منح الهند نظام الدومنيون ، ولذلك نظم حركته السلمية . وقد أوشكت الحملة الأولى فى هذه الحركة أن تزعزع الحكم البريطانى . وقال الحاكم البريطانى فى هذه المناسبة : « إن غاندى أعظم تجربة هائلة فى تاريخ العالم ، وأنه قد غدا على مسافة شبر واحد من النجاح . »

إلا أن المقاومة السلبية كانت دائما تؤدى إلى استعمال العنف . وعندما شاهد غاندى إراقة الدماء بعد دعوته إلى المقاومة غمره ندم وتقريع فوقف

حملته عام ١٩٢٢ وأدان نفسه بسبب سوء تقديره ، ورأى أن أتباعه لم يعدوا أنفسهم إعدادا كافيا كى يثقوا بفائدة العمل الروحى وليكونوا « أداة صالحة » لانجاح الأعمال السلمية .

وقد تكرر ذلك فى السنين التى تلت ذلك . فان كافة أنواع العمل السلبى — اضجاع النساء على خطوط السكك الحديدية ، استخراج الملح من البحر ، مقاطعة المخازن البريطانية ، الاضرابات ، المواكب الحاملة أعلاما خفاقة — أدت إلى إطلاق الرصاص فى الشوارع وإلى إشعال النيران وانتشار أعمال السلب والنهب . وكان الصوم دائما هو كفارة غاندى عن ذنوبه .

وبعد كل صوم ، وبعد كل مقاطعة ، وبعد كل سجن ، كان غاندى يقترب من هدفه الأخير ألا وهو تحرير الهند . وأخذ يستعمل نفس الأسلحة من أجل تحقيق أهدافه الاجتماعية التى تتناول القضاء على الاعتقاد بوجود أنجاس ومطهرين ، وعلى شرب الخمر ، وعلى اغتصاب الأراضى وتزويج الأطفال واحتقار المرأة .

وبينما كان مستمرا فى كفاحه أخذت السياسات الهندية تتحول من طريق إلى طريق . فالمجلس الوطنى الذى كان يمثل الهنود بجميع طوائفهم وملهم اعترف أخيرا بأن محمد على جنه يتكلم باسم المسلمين ، وأدى ذلك إلى انشقاق الجبهة اليسارية وخروجها من المجلس ، وهدد الشيوعيون الذى يرأسهم بوران جاندرا جوزاهى بمقاومة سياسة تهدئة المزارعين والصناع المحليين التى كان يعمل غاندى لتوطيدها . ومنذ عام ١٩٤١ انتقلت إدارة المجلس إلى أيدى جماعة من المحافظين يرأسها السردار فالا بهبهاى باتل ، واقتصرت زعامة غاندى على التوجيه غير المباشر .

وقد أثرت اشتراكية جواهر لال نهرو كذلك فى طابع الكفاح الهندى ، وأخذ الجهاد الاستقلالى يساير جهادا آخر يعتمد على القوى الاقتصادية . إلا أن غاندى كان يجيب على هذه المشاكل المربكة بقوله : « إن الأذى لا يحيى شيئا ، عش ببساطة ، وبسلام ، وبصفاء » . وكان كلما تغلب على تغلغل النفوذ البريطانى يقدم دليلا للوطنيين الهنود على اتساع تعاليمه .

وظل غاندى إلى آخر أيامه يأمل فى جمع الهندوسيين والمسلمين معاً فى دولة هندية متحدة ، بالرغم من اعلان تقسيم الهند رسميا إلى دولتين :

الهندستان والباكستان ؛ لأنه كان يؤمن بأن استمرار الأحقاد والمنازعات لن تؤدى إلى إفناء الدولتين بل إلى إفناء الهند بأسرها .

وبالرغم من أن الاتفاقات السياسية الأخيرة التى وقعها القادة الهنود لتجزئة الهند فان المصادمات الطائفية ظلت مستمرة ، فعمل المهاتما غاندى لإحلال السلام والتفاهم ، وقام بزيارة المدن والقرى لوقف المجازر الناشبة . ولما أخفق أعلن عن صومه ، وكان هو الصوم الأخير الذى وقفه بعد الحاح أتباعه .

وأخيرا قتل غاندى بالرصاص ، وهو الذى عاش ومات فى سبيل الدعوة إلى الإخاء والمحبة . وكان هذا الموت بالنسبة له دليلا على أن لا يكون الناس — كما قال برنارد شو — طيبى القلوب إلى هذا الحد . وستبقى تعاليم هذه الروح الكبيرة خالدة ما بقى الناس يستوحون المدد من أنبيائهم ورسلهم ؛ لأنه لم يكن إلا رسولا من رسل الضمير النقى والقلب الطاهر .

[بغداد] فؤاد طرزى